التجرد عن الهوى.. والبناء المحكم وأخلاق النبوة

أشرت غير مرة فيما سبق من القول: إلى أن قضية مكارم الأخلاق التي كانت تطبع سلوك النبي الأمي عليه الصلاة والسلام، وتزدان بها تصرفاته.. كانت ـ على ما يبدو ـ فيصلاً بين أولئك الذين تجردوا عن طاعة الهوى والشيطان، وتفلتوا من ربقة التقليد الأعمى والخوف على الزعامة والمنصب، واحتكموا إلى العقل السليم، وما يشرق به حصاد المعرفة به عليه الصلاة والسلام.. وبين أولئك الذين قعد بهم عن رؤية الحقيقة والإذعان لها إهمال عقولهم، وخضوعهم لسلطان الهوى في الإعراض عما يعرفونه معرفة يقينية به صلوات اللّه وسلامه عليه قبل البعثة وبعدها، وما كان عليه من سمو في الأخلاق ورجاحة في العقل، وأحقية في رفعة المنزلة في قومه.

ناهيك عما يحسُّونه من إعجاز القرآن؛ فوقعوا في التناقض الهابط، حتى كأنهم يكذبون أنفسهم قبل أن يكيلوا التهم للصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وهو الذي يؤكد صدقه وأمانته ويزيدهما يقيناً فوق يقين، أنه لم يزعم لنفسه أنه صاحب الكلام الذي عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله، وصدق فيهم قوله تعالى:﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الإسراء: ٨٨].

من أجل ذلك ـ واللّه أعلم ـ جاء الحكم على هؤلاء الذين لا يرجون للّه وقاراً، ومكروا مكراً كبّاراً، فأهملوا في مواجهة دعوة الحق عقولهم، وما أعطاهم اللّه من وسائل المعرفة التي تؤدي ـ إذا حسن استخدامها ـ إلى الإفادة من الوقائع، والبصيرة في ربط النتائج بالمقدمات، وسلامة الحكم على واقعة أو شخصٍ ما.. جاء الحكم عليهم بأنهم أناس أشبه بالفاقدين لما وهبهم اللّه من الضياء على طريق المعرفة؛ لأنهم أهملوه ولم يستخدموه.

ذلكم ما رأينا من قريب فيما دلنا عليه المعلم القرآني في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وفي سورة «الأعراف» بعد أن ضرب اللّه مثلاً للذين كذّبوا في عماية عن الحق الواضح البيِّن، بالكلب الذي إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث: قال جل شأنه: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف:١٧٧-١٧٨].

ثم قال جلَّ ذكره: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[الاعراف: ١٧٩].

وليس عجباً من العجب أن يذكرنا ذلك مرة أخرى بامرأة عاقلة حصيفة أملت على التاريخ موقفاً على ساحة الحق لا يُنسى، أعني زوج النبي ﷺ خديجة بنت خويلد رضي اللّه عنها؛ وذلك بما كان منها من استخدام وسائل المعرفة الموهوبة لها من اللّه ـ بعقلية بناءة ذاتية ـ فخرجت بالنتيجة العظيمة التي استنبطتها من منهج رسول اللّه الخلقي، ومسلكه في الناس قبل البعثة.. أجل خرجت بالنتيجة التي تقرر أن اللّه تعالى لن يخزي عبده محمد بن عبداللّه وهو على هذا السمو من الأخلاق التي يمتد أثرها إلى المجتمع على أكمل وجه.

وهكذا تعطي خديجة الدرس العظيم الذي حفظه لها تاريخ الرسالة الخاتمة: وهو ما تمليه الضرورة في العمل على تنمية القدرة على استخدام وسائل المعرفة، بعد الاتجاه لاستخدامها ـ وهي من نعم اللّه على الإنسان ـ والرغبة في التجرد والإنصاف عند الحكم على الأشخاص والأعمال والوقائع على نهج من الاستقراء والاستنتاج الأمينين.

وهل يخفى على ذي بصيرة ـ وصلة النسب قائمة بين ماضي الأمة وحاضرها، بل ومستقبلها ـ ما لليقين بصدق الرسالة، ولسلامة البنية الثقافية لدى الفرد والجماعة، من أثر في تحمل الأعباء، والقدرة على الأخذ بأسباب البناء والنماء؟!

ألا لا تثريب علينا في التنبيه على أن كل أولئك جدير أن يحمل على استنطاق الوقائع التي كان من أبسط دلالاتها صدق الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن القرآن كلام اللّه عز وجل؛ فذلك مما يشد العضد، ويجدد العزيمة بعون اللّه.

على هدي هذه المقولة التي لا ريب في انعكاساتها على يقظة الأمة وتطلعاتها المستقبلية، لعل من الخير أن نعيد إلى الأذهان ـ مع الذي رأينا من خديجة رضي اللّه عنها ـ موقفاً آخر من مواقف التجرد والنصفة في استخدام العقل وسلامة الاستقراء، هو موقف هرقل عظيم الروم قبل أن يفرض عليه رجال الدين عنده ـ وحالهم هي الحال ـ رأيهم بقوة الشغب والإثارة.. ولقد كان ذلك يوم اجتمع إليه أبو سفيان رضي الله عنه قبل أن يسلم، ومن معه بإيلياء... وحصل ما حصل... يمكن أن نستمع إليه أو إلى بعضه - على الأقل - فيما يأتي من القول إن شاء اللّه.

وهو الحوار الذي أخذت فيه أخلاق النبي ﷺ ـ بإنصاف أبي سفيان ـ مكانها في إقناع من أراد مقنعاً: أن محمداً ﷺ صادق في دعوى أنه رسول اللّه ﷺ يوحى إليه بالقرآن الذي يتنزل بلسان عربي مبين.

وإذا كانت الرسالة الخاتمة ـ بما فيها من مضمونات ـ تتجاوز الترف الثقافي، إلى وجوب التطبيق وبناء الحياة على هديها ـ: فليكن في مناهج الإعداد العلمي والثقافي حيث العناية بالمعرفة والسلوك: ما يُحكم الارتباط بقيم هذه الرسالة علماً وعملاً وإخلاصاً في طاعة اللّه بالائتمار بأوامرها، واجتناب نواهيها، دون غفلة عن السنن الإلهية، ولا تجاهل للواقع .

ومن يتقِ اللّه في العمل على تحقيق ذلك ـ بما هو مستطاع ـ: يظفره ـ إلى جانب خير الدنيا ـ بما أعدَّ اللّه في الآخرة لأحبائه المتقين.

الفهم الدقيق والبناء..
والشطر الآخر من موقف خديجة

«١»

مع المعلم القرآني في فواتح سورة القلم وقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ ومع فقه السيدة عائشة رضي اللّه عنها لأبعاد هذا الخلق العظيم وأنه التطبيق العملي الأمين لأمر القرآن ونهيه وسائر توجيهاته، حتى قالت حين سئلت عن خلق رسول اللّه عليه الصلاة والسلام: «كان خُلُقه القرآن».. وما صنع المنهج الخلقي لصاحب الرسالة من أثر في البناء الذي كان ينشده منذ اؤتمن على وحي السماء وبدأ يرسم للإنسانية معالم تاريخ جديد، مبرءٍ من العدوان على الفطرة وإنسانية الإنسان وكرامة الإنسان!

مع تلكم القبسات من الضياء كانت لنا رحلة عَجلى انتهت بنا إلى واحدٍ من مواقف خديجة بنت خويلد زوجه ﷺ رضي اللّه عنها؛ وهو ما كان منها يوم رجع رسول اللّه من غار حراء يرجُف فؤاده وقد خشي على نفسه بعد أن جاءه الحق هناك وغطَّه الملك ثلاثاً يبلغ منه الجهد في كل واحدة منها، وينزل عليه قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾[العلق:١-٥].

ولقد تمثل هذا الموقف المتميز أول ما تمثَّل، بما كان من رجاحة عقلها، وقدرتها على التبصر في الأمور، حين قابلت زوجها الكريم وهو يقول: «زملوني زملوني»، ويقص عليها الخبر المروِّع بكلمات تحمل صيغة الجزم واليقين وتأخذ أبعادها في تاريخ الإسلام: «كلا واللّه لن يخزيك اللّه أبداً - أو كلا ما يخزيك اللّه أبداً - إنك لتصل الرحم، وتصدقُ الحديث، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

إن الحاجة الملحة إلى تبين الخصائص التي اتسم بها منهج البناء على صعيدي الفرد والمجتمع في الماضي، والذي كان من ثمراته «**حضارة الإسلام**»: يحملنا على إعطاء هذا الموقف من خديجة رضي اللّه عنها حجمه اللائق به على ساحة الإسهام يومذاك في إنجاز تلكم المهمة الكبرى، مهمة البناء الإسلامي العظيم والعودة بالناس ـ بدءاً من العشيرة والقوم في جزيرة العرب ـ إلى حيث الخروجُ من الظلمات إلى النور، توحيداً بعد شرك وإهمال للعقل، وعلماً بعد جهالة جهلاء، وقوة بعد ضعفٍ وشتات، وتنميةً للطاقات المبعثرة والضائعة هنا وهناك، كيما تكون في خدمة الفرد والجماعة، وصياغة مجتمع جديد يحمل مقومات العطاء الخيِّر والاستمرار في نموٍّ وإحكام، وهو ما كان على أكمل صورة والحمد للّه.

والحق أن خديجة رضي اللّه عنها لم تقف عند هذا الحدِّ من تأنيس رسول اللّه، وإشعارها إياه بما استنتجته على وجه اليقين وجزمت به مقسمة عليه، بأن اللّه معه، ولن يخزيه، ما دامت تطبع سلوكه تلكم الصفات الخيِّرة في نفسه وفي تعامله مع الآخرين؛ بل أرادت أن تفيد لهذا الحادث الجلل الذي أحسَّت أنه حادث جدير بالكثير من العناية والمتابعة الجادَّة: من قبل أهل المعرفة بالديانات والتاريخ.

ومن أجل ذلك انطلقت مع الرسول الكريم ﷺ إلى ورقة بن نوفل أعلم أهل زمانه، وأعقل من تعرف لصوقاً بمثل هذا الأمر، دون تلكؤ أو تأخير.

وكان ما سوف نشير إليه في خطوة قادمة إن شاءاللّه، وضربت المرأة الزوجة المباركة خديجة المثل المشرق المذكور في التاريخ؛ فلا تذكر الرحلة المثقلة بالأعباء التي قادها رسول اللّه وهو يرتاد للإنسانية دروب الفلاح والنجاح: إلا ذكرت هذه المرأة العظيمة، لما أن مواقفها كانت ذات قيمة رفيعة في تلكم الرحلة وظروفها وما كان يكتنفها، تأييداً وتثبيتاً وعوناً. وكان عظيماً جداً أن تكون رضي اللّه عنها: أول امرأة آمنت وانشرح صدرها للإسلام، وظلام الجاهلية والأعراف الموروثة تطبق من هنا وهناك.

العقل والبناء.. والشطر الآخر من موقف خديجة

الوقت الثمين.. والآثار

«٢»

الخطوة الثابتة الأولى على درب البناء والعمل على تنبيه العقول إلى ما فيه دفع الأذى عن المجتمع وتوظيفُ طاقاته في مسالك النماء والخير.. هذه الخطوة تأخذ أهميتها من أهمية الغايات الكبار التي يهدف إلى تحقيقها البناة المؤمنون، والمصاعبِ التي تكتنف طريقهم، وهم يواجهون رواسب الباطل والمبطلين ناهيك عن الغفلة والغافلين.

وذلك ما ميَّز موقف خديجة العاقلة الحصيفة رضي اللّه عنها، يوم استعلت على رواسب الجاهلية، ونفذت إلى صلب الحقيقة، وكانت نعم العونَ لرسول اللّه ﷺ وقد آذنه الوحي بالأمر العظيم الذي لم يعهده من قبل... حتى بدت ـ وهي تتصرّف بالحكمة والحصافة ـ كأن كلماتها ـ في أخلاقه عليه الصلاة والسلام، وأنها عنوان الفلاح المؤكد، والعطاء الإلهي الذي لا ريب فيه ـ: تسير في ظل قوله تعالى ـ وقد حمي الوحي واتضحت المعالم ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وقد نبهتُ في إشارة سبقت على أن موقف خديجة لم ينته عند قولها: «أبشر فواللّه لن يخزيك اللّه أبداً»، واستشهادها على ذلك بذكر طائفة من مكارم أخلاقه عليه الصلاة والسلام، ولكنها ـ بثاقب رأيها وراجح عقلها ـ بعد توفيق اللّه ـ أرادت أن تستكمل الحكم من أطرافه، فتجمع إلى ما كان عندها من اليقين فيما استنتجت، ما يقوله أهل المعرفة بالأديان والتاريخ..

تقول عائشة رضي اللّه عنها ـ فيما روى البخاري ومسلم وغيرهما ـ: «فانطلقت به ـ تعني الرسول الكريم ـ خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسدبن عبد العُزى ـ ابنَ عم خديجة ـ وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانيَّ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء اللّه له أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ اسمع من ابن أخيك» ـ وفي «دلائل النبوة» للبيهقي «فأتت ورقة ابن عمها فأخبرته بالذي رأى» ـ فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول اللّه خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً ـ وفي بعض الروايات جذع ـ ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول اللّه ﷺ: «أوَمخرجيَّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قطّ بمثل ما جئت به إلا عودي ـ وفي رواية وأوذي ـ وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزَّراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي».

والتعبير بـ «يا ليتني فيها جذعاً ـ بالنصب ـ أو جذعٌ ـ بالرفع ـ: يدل على أن ورقة تمنى أن يكون شاباً جَلْداً، ليكون أقدر على نُصرة النبي ﷺ في دعوته، ودلالة ذلك على يقينه بصدق النبي ﷺ وأنه رسول من عند اللّه، أولاً، واستنارة بصيرته مقدمة لانشراح صدره للإسلام لو ظلَّ حياً، ثانياً: لا تخفى على ذي بصيرة.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنه على رواية النصب (جذعاً) يكون التقدير: يا ليتني أكون فيها جذعاً كما في قوله تعالى: ﴿انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾[النساء:١٧١] أي يكون انتهاؤكم خيراً لكم. ورواية الرفع (جذع) لا تحتاج إلى تأويل.

أرأيت إلى هذا النبأ العظيم الذي طرح ثقله كله على طريق رسول اللّه ﷺ، كما فهم ذلك ورقة بسعة علمه ودقة معرفته؟! فهنالك رسالة، وهنالك مشاق وتحديات تنتهي بإخراجه صلوات اللّه وسلامه عليه من بلده ومسقط رأسه مكة المكرمة.

وإذن فما حصل من الملك عليه السلام هو بداية الطريق. وغاية السلامة في الفهم ما صدر عن خديجة من بشارة النبي ﷺ أن اللّه لن يخزيه أبداً ما دام آخذاً

بنفسه بذلك النهج القويم من مكارم الأخلاق، وما أضافت إلى ذلك من الذهاب مع النبي ﷺ إلى ورقة العالم بالأديان ورسالات السماء وكان من أمر هذا اللقاء ما كان.

وبعد فإن الوقت الذي تقضَّى بدءاً من كلمات خديجة الأولى وانتهاءً بكلمات ورقة ابن نوفل، وقت جد ثمين في حياة البشرية وتاريخ الإنسان ـ على وجه العموم ـ وتاريخ أمتنا على وجه الخصوص.

وإذا كان الوقت قيمة حضارية في ميزان العقيدة والعلم، ونعمة يقدرها حق قدرها العقلاء النابهون وهو ما فعلته خديجة: فهذا الوقت المومى إليه جدير أن يذكر لأم المؤمنين خديجة التي كانت موفقة التوفيق كله في صنيعها السريعِ التلبيةِ لما يستدعيه تحرير الخطوة الأولى على طريق تعز على الوصف في حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وهو في الأربعين من عمره يومذاك.

وكم نحسن صنعاً ونحن على أبواب صحوة جديدة في أعقاب تجارب مريرة لأفكار قادها مرضى القلوب؛ أن نضع وقائع السيرة موضعها على سلم الأولويات ثم الاهتمامات، بعقول نيرة وقلوب متصلة باللّه تبارك وتعالى!! إننا إن فعلنا ذلك كان اللّه معنا، وأشرقت على خُطانا أنوار التأسي بالمصطفى عليه الصلاة والسلام.

* * *

أم المؤمنين خديجة..
ورسالة المرأة في التغيير المنشود

«٣»

الرصد العلمي الواعي لمسيرة الإنسان الفكرية وانعكاساتها الحضارية على السلوك في عملية البناء الكبرى للإنسان القادر على إدارة حركة الحياة في ضوء منهج سليم متوازنٍ بعيد كل البعد عن العشوائية وردود الأفعال، مصحوبٍ بالتوجيه الحيِّ إلى الانتفاع دائماً بحركة التاريخ إيجاباً وسلباً.. هذا الرصد المنهجي يقتضي متابعة أمينة لما تركه إسهام الرجل والمرأة جميعاً في إحكام البنية الحضارية في تاريخ الإسلام، ومواجهة ما يطرأ من تحديات..

وهذا الرصد الذي يدعو إليه أهل الصلاح والإصلاح الذين نوَّر اللّه قلوبهم وعقولهم، يعطي لكل ذي حق حقه في ظل وضع الأمور مواضعها، ويثمر الإفادة التي يراد لها أن توظف على ساحة المتابعة لما يجدُّ على الساحة الحضارية، وتزويد البنية الصالحة بما يضمن القدرة على الاستمرار.

والأمر في هذه المقولة عندنا ـ نحن المسلمين ـ وثيق الارتباط بمفهومات الرسالة الخاتمة التي سوَّت بين الرجل والمرأة في خطاب التكليف، ولم تفرق بينهما إلا في تلكم الأحكام المرتبطة بطبيعة التكوين الإلهي للإنسان ـ ذكراً كان أو أنثى ـ والخصائص التي تميَّز بها كلٌ عن الآخر، بحيث إذا قام كل بمسؤوليته وفق الأحكام الخاصة به حصل التكامل، وعاد ذلك بالخير على الجماعة والمجتمع والأمة.

أقول هذا، وقد شهدنا من قبلُ ما كان من عطاء المعلم القرآني في قوله تعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ في التذكير بواقعة عملية عظيمة في تاريخنا كان للمرأة الإسهام الخيِّر القويُّ فيها، تلك هي وقفة

خديجة أم المؤمنين رضي اللّه عنها الوقفة الواعية الصامدة مع الرسول ﷺ في حقبة حرجة، كانت أول خطوة على طريق الإيحاء إليه بالرسالة من عند اللّه عز وجل.

ذلك بأن ما صدر عن هذه المرأة زوجه عليه الصلاة والسلام يدل ـ فيما يدل ـ على مدى إدراكها لأبعاد الشخصية الفاذَّة والمنهج الخلقي الذي كان الرسول الكريم يأخذ نفسه به في ذلك المجتمع الجاهلي، وما كان لذلك من آثار على صعيد العلاقة بينه وبين ربه من جهة، وبينه وبين أبناء المجتمع من جهة أخرى.

والرصد الذي ألمحنا إليه في صدر هذا الحديث يقتضينا أن نولي مواقف خديجة رضي اللّه عنها وأضرابها، وبخاصة موقفها مع الخطوة الأولى التي كان يضعها سيد بيتها رسول اللّه على طريق البناء الشامل بديلاً لما كان عليه الوضع الجاهلي المتخلف.. أن نوليها من الاهتمام ما يليق بالحجم الذي أخذه صنيعها على أرض تلك الحقبة من التاريخ، حيث التمَّخُّض والتطلع إلى جديد يبدل الناس ـ بما هم عليه من الجاهلية ـ نوراً يزيل الجهالة والظلام.

ذلك بأن هذه المواقف ـ على وجه العموم ـ تأخذ الوجهة التي تأخذها حركة الحياة التي آذنت بها رسالة التغيير إلى ما هو الأفضل والأقوم للفرد والجماعة في عمارة الأرض، والنجاة يوم الحساب، وتسهم في دفع القافلة الخيِّرة إلى الأمام، في ظروف كانت الفئة القليلة المؤمنة فيها أشبه بالجزيرة المضيئة في بحار من الظلمات.

الجاهليون ـ عموماً ـ وسدنة الشرك ـ بخاصة ـ في القرية العظيمة مكة يعرفون رسول اللّه ﷺ كما يعرفون أنفسهم وأبناءهم، وما عهدوه منذ النشأة إلا الصادق الأمين المستقيم ثاقب النظر راجح العقل؛ حتى إذا عُهد إليه برسالة السماء، وتنزل الوحي من عند اللّه العليم الخبير، بدا سوء الظن من قبلهم، والأحكام الجائرة التي هي على النقيض الفاضح من رأيهم فيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل البعثة.

المرأة السيدة خديجة بنت خويلد تستبشر ـ بثاقب رأيها وإنصافها ـ بأن اللّه لن يخزيه أبداً؛ لأن سلوكه الفذَّ يتسم بتلك الأخلاق الفاضلة التي تأخذ مزيداً من الأهمية ضمن الظروف المحيطة، والتي كشف عنها قول اللّه تبارك وتعالى فيما تنزل بعد من القرآن:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

والرجال الأشداء الذين استبدَّ بهم الهوى: يعرضون عن الحجج الواضحات، والبراهين التي كانت كالشمس في رابعة النهار، ويتهمونه بالسحر والكهانة والشعر وما إلى ذلك؛ الأمر الذي أبان عنه القرآن في كثير من آيه؛ كالذي نقرأ في سورة «الطور» ـ على سبيل المثال ـ قول اللّه عز وجل خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾[الطور: ٢٩].

كما نقرأ في سورة «الحاقة»:﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الحاقة: ٣٨- ٤٧].

وبدلاً من التحاكم إلى العقل السليم، وسموِّ الكلام المنزل وإعجازه ـ وهو بلسانهم وعلى معهوداتهم في الخطاب ـ وأن من يدعي أن هذا الكلام من الوحي صادق أمين ما عرفوا عنه طوال حياته إلا ذلك!! بدلاً من هذا: تجدهم غارقين في حمأة ذلك الافتراء، واللجوء إلى تمحلات رأينا منها في سورة «الأنعام» قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴿١٢٤﴾﴾الذي تلاه قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

أين مواقف الضلالة والمكر من مواقف البصيرة ورجاحة العقل؟ موقف المرأة العاقلة النابهة خديجة رضي اللّه عنها: حلقة من حلقات الإسهام في البناء المشرق بنور الهداية على مدى التاريخ في الإسلام، وموقف الضُّلال من أهل الشرك مرحلة من مراحل الهدم والتخذيل عن الحق وأهله، ومظاهرة الباطل في شتى صوره.

وإن تصنيف القيم التي أغنت حضارتنا عبر القرون يقتضي الأجيال أن تعي مواقع تلك القيم، ومنها موقع المرأة المؤمنة الحصيفة خديجة وأضرابها، كيما يكون سلوك المرأة المسلمة المراد لها الإسهام في التغيير ذا نسب صحيح إلى تلكم القيم التي اقترنت بمواقفها ومواقفهن. واللّه الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

وإن تركوه هلك وهلكوا

«١»

من المعالم القرآنية في علاقة الأمة بنبيها عليه الصلاة والسلام، أن اللّه جعل طاعة رسوله من طاعته:﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَه وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴿٨٠﴾ ﴾ [النساء: ٨٠]. وفي أكثر من موطن جاء الأمر بطاعة رسول اللّه مقترناً بالأمر بطاعة اللّه ، وجاء التصريح بترتيب الضلال المبين على معصية اللّه ورسوله جميعاً قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّه وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴿٣٦﴾ ﴾[الأحزاب: ٣٦] فمن يطع اللّه ورسوله فقد رشد ومن يعص اللّه ورسوله فقد ضلَّ، وملاك ذلك كله أن تكون سنة النبي ﷺ - وهي بيان القرآن ـ المنارة الهادية التي تحمل صفة الديمومة والاستمرار حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا** ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وحقاً لقد هدى ﷺ الناس بسنته في ظلِّ معالم القرآن إلى الصراط المستقيم. كان ذلك في دينهم الذي هو عصمة أمرهم، وفي دنياهم التي فيها معاشهم وقوام حياتهم، وفي آخرتهم التي إليها معادهم: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وفي منهجه ﷺ لبناء الإنسان والحياة بجميع جوانبها كما تقتضيه رسالة الإسلام، تجد لكل مستلزمات البناء وأحكامه وتنمية الطاقات التي تحميه ألواناً من الهداية، تتناسب مع الجانب الذي تمتد إليه يد البناء كائناً ما كان الميدان المراد، في تنسيق يمنع الخلل ويضمن ـ بعون اللّه ـ الصلاح والإصلاح.

وفي واحدة من عيون هدايته ﷺ نجد بياناً عملياً تطبيقياً لقوله تعالى:﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] إذ الدعوة إلى الخير بمفهومه الشامل البنَّاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إسهام في البناء وحراسة فاعلة من داخل الفرد والجماعة لهذا البناء.

وفي معرض التنبيه على مسؤولية الفرد والجماعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحيلولة دون أن تكون حرية فرد أو مجموعة من الناس باب شر يتسرب منه الأذى إلى المجموع: يقول رسول اللّه ﷺ: «مثل القائم على حدود اللّه والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماءَ مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ مَنْ فوقنا؟ فإن يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» أخرجه البخاري وغيره من رواية النعمان بن بشير رضي الله عنه واللفظ للبخاري.

هذا مثل تتكرر صوره في حياة الأمة على كثير من الأصعدة، وكم كان مفهوم الحرية الخاطىء عند البعض عقبةً على طريقها، وهي تتطلع إلى اللحاق بالركب وبناء قوتها التي ترهب عدو اللّه وعدوها في شتى الميادين، وتحقيق وجودها الذاتي الأصيل.

لقد كانت حجة من أرادوا نقب السفينة ـ في هذا المثل النبوي ـ أن المكان مكانهم يصنعون فيه ما يشاؤون، ولكن رسول اللّه أوضح ببلاغة فاذة أن مصلحة الجموع هي الحاكمة، وفي ذلك أيضاً حفاظ على مصلحة الفرد؛ لذا دعا الجماعة إلى أن تنهى عن المنكر وتزيله، بأن تأخذ على يد من أراد النقب؛ لأنها إن أخذت على يده نجا هو ونجت الجماعة، وإن تركوه ينقر السفينة هلك وهلكوا.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظ الفرد ويحفظ الجماعة ونظامها، ويصون عن الفوضى، الأمر الذي يضمن استمرارية البناء والنماء على كل صعيد.

واليوم والأمة تمر بالعاتي من الوقائع والمفاجآت وتخوض معارك الحق مع الباطل، ومعارك تربية الأجيال وإعدادها، وتتحرك على صعيد التغيير إلى ما هو الأفضل، وما يجب من العلم والتخطيط من أجل التنمية والبناء.. تبدو الحاجة ملحة أكثر وأكثر أن يدقَّق في الزوايا والخبايا، فيؤخذ على كل يد تعمل على نقر السفينة، فتهدم ـ لا سمح اللّه ـ أو تعوق استئناف المسيرة الخيِّرة. واللّه المسؤول أن يهدينا بمعالم كتابه ويبصرنا الطريق كما أراد نبينا عليه الصلاة والسلام وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وهذه رواية أخرى للبخاري تزيد الأمر وضوحاً ولفظها: «**مثل المُدهن في حدود اللّه والواقع فيها: مثل قوم استهموا سفينةً، فصار بعضهم في أسفلها وبعضهم في أعلاها؛ فكان الذين في أسفلها يمرُّون بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأساً، فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: مالك؟ قال: تأذيتم بي ولابدَّ لي من الماء؛ فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجَّوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم**».

* * *

فهم الحرية الخاطئ ـ وحراسة البناء

الفرد والجماعة

«٢»

من المعالم القرآنية في علاقة أمتنا المحمدية بنبيها الكريم عليه الصلاة والسلام أن اللّه جعل طاعة رسوله من طاعته:﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾[النساء:٨٠] والأمر بطاعة رسول اللّه مقترناً بالأمر بطاعةاللّه جاء في أكثر من موطن في القرآن الكريم: ﴿وَأَطِيعُوا اللَه وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾[المائدة:٩٢]﴿ وَأَطِيعُوا اللَه والرَّسُولَ﴾ [آل عمران:١٣٢].

وملاك ذلك كله أن رسول اللّه ﷺ ابتعثه اللّه ليكون منار هداية الناس على مدى الأزمان والعصور حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها، ذلكم قوله تعالى:﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[الشورى:٥٢]﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ [سبأ:٢٨]﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[الأنبياء:١٠٧] .

وحقاً لقد هدى الناس لسنته إلى الصراط المستقيم في دينهم الذي هو عصمة الأمر كله، وفي دنياهم التي فيها معاشهم وأموالهم التي جعلها اللّه قياماً لهم، وفي آخرتهم التي إليها معادهم يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

وهكذا نجد لكل مستلزمات الحياة ألواناً من الهداية في شأنها، تتناسب مع ما هو للإنسان فيه حاجة، بناءً وتقويماً، وإصلاحاً في كل ميدان.

وفي واحدة من عيون هدايته ﷺ إلى ما فيه صلاح الفرد والجماعة في ظل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ جاء في معرض حراسة المجتمع من قبل الجماعة، والحيلولة دون أن تكون حرية

فرد أو جماعة من الناس باب شر يتسرب منه الأذى إلى المجموع، يقول رسول اللّه ﷺ ـ كما مر بنا من قبل ـ: «**مثل القائم في حدود اللّه والواقع فيها...**» الحديث.

أرأيت، يا أيها المؤمن المصدق إلى سمو هذا الهدي النبوي الذي يتخطى حدود الزمان والمكان والمناسبات، حتى كأنه اليوم لزماننا هذا وما نجد فيه، وما نعاني منه في فهم الحرية خصوصاً حرية الفكر حيث نابتات السوء التي تريد أن تستبدل عقولها ـ ولا ندري أي عقل منها وفي أي زمان أو مكان ـ بوحي السماء، مع أن الوحي هو الذي كرم العقل وأعطاه مكانه الطبيعي بحيث لا يزاحم الوحي، فضلاً عن أن يقدَّم عليه.

لقد كانت حجة من أرادوا نقب السفينة أن المكان مكانهم يصنعون فيه ما يشاؤون. ولكن رسول اللّه ﷺ أوضح أن مصلحة المجموع وصيانة الحق، الوقوف عند ضوابطه هي التي يجب أن تكون الحاكمة، ودعا الجماعة إلى أن تأخذ على يد من أراد نقب السفينة؛ لأنها إن أخذت على يده، نجا هو ونجت الجماعة، وإن تركوه هلك وهلكوا.

إن في هذا التحديد الرادع الحكيم، ـ مع الردع والنهي عن المنكر المنذر بالخطر ـ حفظاً لهذا الذي استجره الطغيان والغفلة إلى ارتكاب الخطأ، كما أنَّ فيه حفظاً للمجتمع ببناه كافة، ودرساً في البناء على ساحات الفرد والجماعة والأمة لا تبلى جدته على الأيام!!

واليوم والأمة تمر بالعاتي من الوقائع والمفاجآت والقاسي من صروف الدهر عليها أن تأخذ على يد من ينقر السفينة فينذر عمله بخطر الغرق، وإلا كان الهلاك له وللجميع.

وما أحسب أن الأمر بحاجة إلى المزيد من الإيضاح، والحمد للّه الذي خاطب نبيه ﷺ بقوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾** ﴾ وجعل طاعته من طاعته.

إن البناء ضرورة، وإن دفع الأذى عن البنيان لكيلا ينقض أو يهدم ضرورة مثلها وصلى اللّه على من ائتمنه اللّه على بيان كتابه، فأدى أمانة البيان خير أداء، وكان من قبل عنه، فعن اللّه قبل، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته أجمعين، ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين، وسلَّم تسليماً كثيراً. والحمد للّه رب العالمين.

* * *

إنسان العقيدة... وتنمية الطاقات

جاء في «جامع البيان» للإمام الطبري عند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ ذكر أن هذه الآية نزلت في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين عرفنا منهم سعد بن أبي وقاص وبلالاً وعبد اللّه بن مسعود، قال المشركون لرسول اللّه ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك.

فاللّه تعالى يرد على هؤلاء المشركين تحكيمهم لمقاييس الجاهلية في تصنيف الناس، وطلبَهم من النبي ﷺ طردَ هؤلاء الكرام لكيلا يجترىء عليهم المستضعفون... يرد على هؤلاء الجاهليين فيقول للنبي عليه الصلاة والسلام: لا تطرد يا محمد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك الذين يعبدون ربهم دوماً في الصباح وفي المساء، يلتمسون بذلك القربَ من اللّه وأن يكونوا من أهل رضاه... وتختم الآية بما يشعر بأن طردهم ظلم أيُّ ظلم ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[الأنعام:٥٢].

وما من ريب في أن هذا الوعيد: إنما هو لبيان الأحكام ـ وحاشا النبيَّ ﷺ من وقوع ذلك منه ـ قال الإمام القرطبي: وهذا كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقد علم اللّه منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله.

هكذا تأخذ الهداية القرآنية مكانها في تقدير إنسانية الإنسان ـ عند التقويم ـ ومقدار قربه من مولاه وحسن عطائه في المجتمع.. تأخذ مكانها الملائم الذي صان القضية عن مقاييس الجاهلية، وآذن التاريخ الإسلامي بأنه إذا ذكر الرجال فحيَّهلا بهؤلاء الذين علَّق زعماء قريش حضورهم مجلسه عليه الصلاة والسلام على طردهم رحمهم اللّه ورضي عنهم.

وهذه الرحلة العجلى مع هذه الآية الكريمة تصلنا بقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾[الكهف: ٢٨].

ففي الآية أمر للنبي ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء المخلصين الذين يعملون لله، وهذا ما يضمن الخير لأنفسهم وللمجتمع، لأن المخلص الذي يريد بعمله وجه اللّه، لا سلطان للأهواء والنزوات عليه، كما أنَّ العقبات ـ ما دام همُّه مرضاة اللّه ـ لا تحول دونه ودون الاستمرار والمتابعة مهما تفاقمت الصوارف والمعوقات.

ثم جاء النهي عن الانصراف عن هؤلاء البررة ابتغاء زينة الحياة الدنيا؛ فَصَبْرُ النفس معهم ـ وهم على هذه الشاكلة من ذكر اللّه في الغداة والعشي لا يبغون عن مرضاته سبحانه حولاً ـ أمر عظيم من أمور الآخرة، أين منه ما يحصل من زينة العاجلة ومتاعها الزائل.

أرأيت إلى هذا التكريم لإنسانية الإنسان، وإلى ما تشرق به الآية من إعلاء شأن التقوى وصدق الوجهة في العمل...

إنها الحقيقة التي تعمل عملها في الإفادة من الطاقات والإمكانات جميعها، بعيداً عن النظر إلى فوارق الجاهلية التي تضعف وتشتت، وتحرم الأمة من كثير من الخصائص والقدرات!!

وفي خطوة أخرى على ساحة التأصيل لهذه الحقيقة، نقع في ختام الآية على نهي النبي ﷺ ـ وهو في موقع الهداية والقيادة ـ عن طاعة أولئك الغافلين الذين همهم أنفسهم بما يشغلها من تطلعات هابطة، واستعلاء على الآخرين لا يغني من الحق فتيلاً.

وجميل أن نذكر أن هذا كله قد جاء بعد ذكر أولئك النفر من المؤمنين بصفة أنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه.

وليس من مكرور القول تقرير أن فيما أُمر به النبي ﷺ وفيما نهي عنه في الآية الكريمة: تأصيلاً لمقياس الكفاءة القائمة على الإيمان ومقتضياته؛ فأصحاب الكفايات والمهارات من المؤمنين الصادقين: هم الذين يستطيعون أن ينهضوا بالعبء ويصلحون لأن يؤتمنوا على التخطيط والتنفيذ.

أما بعد: فإن هذا المعلم القرآني مضموماً إليه ما رأينا في سورة الأنعام وما يقع عليه المؤمن في سورة «عبس» حيث العتاب على الإعراض عن ابن أم مكتوم وإن كان بغية شد أولئك الزعماء إلى الإسلام... وما جاء في سورة الحجرات من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] جدير أن يكون نصب الأعين، عندما يراد مسح الكفايات في الأمة في أي مجال من المجالات، لتكون العبرة ـ بعد العلم والمهارة ـ لسلامة النوعية والكيف، لا للكم والعناوين.

وتبدو الحاجة إلى ذلك أكثر وأكثر في مراحل استئناف البناء وتنمية القدرة الذاتية، لما أن العلم جعل لهذه القضايا شعباً وفروعاً يُداخلها نوع من التعقيد في كثير من الأحيان.

فالذين يسهرون على العمل ويناط بهم ترجمة المكتوب على الورق إلى صورة عملية جادة مرحلة بعد مرحلة: إذا كانوا من النوعية التي أصَّل لها المعلم القرآني، فذلكم هو الخير والفأل الحسن، والعكس بالعكس.

ولما كان بعض الكفرة ـ وعلى رأسهم يومذاك عيينة بن حصن وأصحابه ـ قد شرطوا لجلوسهم مع النبي ﷺ ـ كما أسلفنا ـ أن يخلو مجلسه من أولئك المستضعفين الذين لا يصلحون لأن يشركوهم في المجلس كما يرون، وحسب سلم القيم عندهم: أُمر الرسول ﷺ في آية تالية أن يقطع عليهم الطريق لكيلا يعودوا إلى مثل هذا المطلب الذي يتنافى ومعايير الإسلام؛ فالحق الذي يدعوهم إليه خاتم المرسلين صلوات اللّه وسلامه عليه حق رباني واضح لا يعتريه لبس ولا غموض، وقد استنفد جهده في الدعوة إليه بحكمة مؤيدة بوحي السماء؛ فمن شاء فليؤمن بهذه الدعوة ومن شاء فليكفر، ولكلٍ عاقبته في الآخرة، والجزاء من جنس العمل.

والآيات المعنيَّة هي قول اللّه جل ثناؤه: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩-٣١].

ألا إن هداية القرآن في معالمه الخيّرة تأخذ بأيدينا إلى ما به تسعد الأمة في دنياها وآخرتها؛ ففي الدنيا بناء وإعمار واستثمار لنعم اللّه الظاهرة والباطنة وتنمية لها والإفادة مما سخر اللّه في الكون للإنسان؛ الأمر الذي يعود على الفرد والجماعة بالقوة التي تحمي الحق وأهله في مواجهة الباطل وسدنته، ويضع هذه الأمة موضع القيادة والريادة من جديد.

أما في الآخرة: فلا تسل عما يكون ـ بفضل اللّه ورحمته ـ من الفوز بجنات تجري من تحتها الأنهار في نعيم لا ينقطع ولا يزول، ورضوان من اللّه أكبر لما أن العمل في الدنيا نبت في أرض الإيمان وصدق العبودية لله عز وجل، وهو سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* * *

حسُّ المسؤولية.. والبناء

غير خاف على ذي بصيرة أن الإسلام بقدر ما أعطى الإنسان من قيمة وتكريم: حمّله من طريق خطاب التكليف ـ وهو مؤهَّل بحكمة اللّه لذلك ـ عهدة الإيمان والعمل الصالح وتحكيم التقوى في السلوك، ونمَّى في أعماقه وجوب الاندفاع الذاتي إلى تحقيق ما كلِّف به، والإحساس بالمسؤولية على أكمل وجه، مهما كان ثمن ذلك من العطاء.

وعلى المنهج المسلوك في الإيجاز الذي لا مندوحة عنه هنا: نسعد لتأكيد هذه المسلَّمة، باصطحاب واحد من معالم الكتاب العزيز، نلمسه فيما جاء في سورة الشعراء خطاباً للنبي ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين الأقرب منهم فالأقرب، بتخويفهم من عذاب اللّه إن لم يؤمنوا بما أنزل اللّه عليهم.

ذلكم قول اللّه جل ثناؤه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢٢٠].

قال علماؤنا: وإنما أمر النبي ﷺ ببدء النذارة للأقرب فالأقرب من عشيرته وذويه أولاً، لئلا يظنَّ أحد به المحاباة وتخصيصَهم بشيء من اللطف دون غيرهم؛ فإذا حزم الأمر مع الأقربين: كان قوله أنفع، وكلامه أنجع.. وهذا في الواقع من الفوارق بين النبوة والزعامات الأرضية.

وأنت واجد أنه ـ صلى اللّه وسلم وبارك عليه ـ قد أُمر ـ بجانب ذلك ـ بخفض الجناح ولين الجانب لأتباعه المؤمنين أيَّاً كان شأنهم في المجتمع، وأن يتبرأ ممن عصا ولو كان من أقرب الأقربين، لأن الدعوة دعوة اللّه وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ مؤتمن على أن يبلغ هذه الدعوة عن اللّه؛ فالمؤمنون قرباء مهما بعدت أنسابهم، والمعرضون بعداء مهما قربت تلك الأنساب.

والمسؤولية فردية ـ في الأصل ـ لا تتأثر سلباً أو إيجاباً بتلك القرابة. والاستجابةُ للدعوة، والعملُ بمقتضاها: هما المقياس الحقيقي للصلاح أو الفساد.

وإنا إذ نصطحب هذا المعلم المبارك، نتجه صوب طريقة الامتثال النبوي لهذا الأمر الإلهي، وإخراجه إلى حيز التنفيذ من قِبَله عليه الصلاة والسلام، ذاكرين أن ما أنذرهم عقاب اللّه على عدم الإيمان به: هو التوحيد الخالص لله عزَّ وجل، وترك الشرك مع إفراده ـ سبحانه ـ بالعبودية؛ لأن الآية الكريمة سُبقت بقوله تعالى: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢٢٠].

لقد صدع رسول اللّه ﷺ بما أمره به ربه من إنذار عشيرته الأقربين، وكان خير أُسوة في العمل بأمر اللّه على أدق وجه وأكمله، واستمع التاريخ في الأيام الأولى للدعوة في مكة المكرمة رجلَ الإنسانية الموحى إليه، يخاطب أولئك الأقربين من عشيرته منذراً إياهم بين يدي عذاب شديد، وراح يقرر ـ بذلك ـ مبدأ المسؤولية الفردية، ويبني بيده الصناع وحكمته الباهرة الشعور بالتبعة، بعيداً عن الملابسات الاجتماعية، والقرابة النسبية ـ وغيرها بالأولى ـ وهذا ما يشدنا إلى ما جاء بعد ذلك ـ كما ذكرت آنفاً ـ من قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٦].

هكذا.. بعيداً عن القرابة ـ حتى القريبة منها ـ والنسب: خفض الجناح لمن يتبع رسول اللّه من المؤمنين، والبراءة من عمل المعرضين الضالين أياً كانوا ولا كرامة!!

روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قام رسول اللّه ﷺ حين أنزل اللّه عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فقال: يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من اللّه شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من اللّه شيئاً، يا عباسُ بن عبد المطلب لا أغني عنك من اللّه شيئاً، ويا صفية عمة رسول اللّه لا أغني عنك من اللّه شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من اللّه شيئاً». وفي رواية: «يا بني عبد المطلب» «يا بني عبد مناف».

وفي رواية لمسلم: لما نزلت الآية دعا رسول اللّه ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، لا أملك لكم من اللّه شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلُّها ببِلالها» أي سأصلها ولا أغني عنكم من اللّه شيئاً.

إنها دعوة إلى الاندفاع المجدي على طريق الحق، في ظل الشعور بالمسؤولية كلٌ عن نفسه، والحسِّ بتبعة الواجب، دون اتكال على الآخرين، أو اتكاء على تقاصر أو إعراض فلان أو علان، ناهيك عن التعلُّل باعتبارات تلتقط من هنا وهناك «أنقذوا أنفسكم من النار» «أنقذي نفسك من النار» «لا أغني عنكم من اللّه شيئاً» «لا أغني عنكِ من اللّه شيئاً».

صلى اللّه وسلم وبارك على معلم الناس الخير إمام الدعاة المتقين؛ لقد عمد ـ امتثالاً لأمر ربه ـ إلى مناداة أولئك الأقربين على اختلاف مراتبهم في القرابة بهذا التحديد الواضح الذي لم يعرف الاشتباه إليه سبيلاً، وكان ذلك دليل الأهمية البالغة لبناء إنسان الرسالة على تلك القِيَم ذات الأثر في إحكام البناء؛ فإذا توافر الشعور بالتبعة، والإحساس الذاتي بالمسؤولية، برزت الإمكانات، واتجهت الطاقات إلى حيث تعمل عملها في ميدان الصراع المرير بين الحق والباطل.

ولقد أثمر نداء الرسول ﷺ، فاستيقظ الموفقون على صوت النذير وراحوا يسلكون أنفسهم في ركب أهل الإيمان الذين يصطلون بنار الفتنة صباحَ مساءَ، تاركين ـ وهم الفئة القليلة المؤمنة ـ قطيع الجاهلية الأرعن إلى غير رجعة، مقبلين على اللّه بكل شراشرهم، صابرين ـ على البلاء ـ محتسبين.

ولسوف تجد الأمة في هذا المعلم القرآني، وبيانه القولي والعملي من رسول اللّه ﷺ حيث طبقه على الشكل الذي أثبتته النصوص.. لسوف تجد ـ إن هي اهتدت بهداه من حيث آفاقه في الهداية ومراميه ـ ما يشدها إلى ساحة من الجدية والحزم

النافع في بناء الإنسان ذكراً كان أو أنثى، الإنسان الذي يقدِّر مسؤولية الكلمة ومسؤولية العمل، والذي تسيِّره مع طريق التكوين والإسهام في بناء المجتمع المسلم وتنمية طاقاته بأنواعها، حوافزُ ذاتية لا تحتاج إلى مهاميز مصطنعة من هنا وهناك.

وإذا كانت ثغور البناء والتنمية كثيرة متنوعة على صعيدي الأصالة والواقع، فما أحوجنا إلى تنمية هذه القيم التي بدأ بإرسائها في القلوب والعقول محمد ﷺ وهو يتجه صوب إبلاغ الدعوة وبناء حضارة الإسلام.

أجل ما أشد الحاجة إلى تنمية هذه القيم ـ من طريق التعليم والتربية والإعلام وأساليب الدعوة ـ عند كل قائم على واحد من تلك الثغور، وتحقيق ذلك خطوة متقدمة ـ بلا ريب ـ على طريق استئناف المسيرة الخيِّرة إن شاء اللّه.

* * *

الرحمة.. وبناء الإنسان

«١»

من السمات الحضارية التي كانت من عطاء رسالة الإسلام في واقعها العلمي والخلقي من ناحيتي التصور والتطبيق العملي: ما أعطي للرحمة من حجم بعيد المدى في حياة المسلمين أفراداً وجماعات، يحمل طابع الشمول ولا تعوزه إنسانية الإنسان.

وكان ذلك ضمن إطار من الحكمة البالغة في وضع الأمور مواضعها شدةً وحزماً، ورحمةً وشفقة، والانضباط بضوابط منزهة عن سلطان الأهواء والنزغات.

فللشدة مكانها الذي لا ينفع فيه غيرها، والذي يؤدي إلى الرحمة بمن عومل بتلك الشدة والحزم، ولذلك ماله من أثر طيب في حياة الفرد والجماعة بل والأمة بإطلاق!!

كما أن للرأفة مكانها كذلك دون وكس ولا شطط بحيث تعطي ثمراتها الطيبة، ويسهم وضعها في المكان الملائم في لم الشعث وصفاء القلوب، والإحكام في بناء الإنسان.

ومن خصائص الشرعة المباركة في الإسلام أنها تمسك بعاتق الميزان في هذين الأمرين وأمثالهما، الأمر الذي تتجلّى معه حكمة الحكيم الخبير سبحانه فهو الحكيم الذي يضع الأمور مواضعها فيما يصلح العباد والبلاد، الخبير بما هو الخير لعباده والأصلح لهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

ولست هنا بسبيل الاستقصاء المودع تفصيله في مظانه، ولكنها الإشارة العابرة.

فأنت واجد ـ على سبيل المثال ـ أن إقامة الحدود ـ في بعض حِكمها والأغراض التي تحققها ـ هي نوع بارز من أنواع الرحمة؛ لما فيها من الحفاظ على بنية الأسرة وكيان المجتمع، وصيانة الدين والمال والنفس والعرض والأخلاق

والأنساب وما إلى ذلك. ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور: ٢].

وماذا أنت قائل عن الجهاد في سبيل اللّه ـ ذروة سنام الإسلام ـ الذي لا يرتاب منصف في أنه ـ ببواعثه وأهدافه وثمراته العظيمة ـ رحمة من اللّه لبني الإنسان؛ لما فيه من إزاحة ركام الظلم وطغيان الظالمين من طريق الإنسان، كيما يتاح لفطرته أن تستجيب لدعوة الحق، وكيما يعيش إنسانيته الحقة، ويستمتع بما أعطاه اللّه، وما سخر له من خيرات هذا الكون، ولما فيه من تهيئة السبل لنشر كلمة اللّه في الأرض، ونصرة الشعوب المستضعفة، ودفع أذى الفتنة عمن يحملون لواء الحق ويعملون على إعلاء كلمة اللّه وتحقيق ما فيه إسعاد الإنسان في الدنيا والآخرة ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٣٩-٤١] وحسبك أن هذا كله ومثله كثير في شرعة الإسلام يدخل ضمن إطار الرحمة التي أرسل بها محمد صلوات اللّه وسلامه عليه. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفي تأصيل لمقام الرحمة في هذا الدين وبيان مكانتها: نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام توعّد الذين لا يرحمون الناس بحرمانهم من رحمة اللّه، وهي حقيقة أعلنها ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم وأرسله اللّه رحمة للعالمين ـ بالكلمة الواضحة بلا لبس أو غموض. روى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد اللّه البجلي رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**من لا يرحم الناس لا يرحمه اللّه**».

ونقع على نص من كلامه صلوات اللّه وسلامه عليه يتسم أكثر وأكثر بالتعميم؛ فعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قبَّل النبي ﷺ الحسن بن علي رضي اللّه عنهما ـ وعنده الأقرع بن حابس ـ فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلت منهم أحداً؛ فنظر إليه رسول اللّه ﷺ فقال: «**من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ**» أخرجه البخاري ومسلم.

وهكذا يمتد رواء الرحمة في الإسلام حتى يصل إلى العجماوات والبهائم.

وفي سورة «النمل» يهدينا المعلم القرآني إلى واقعة تحمل صورة غايةً في الإشراق على هذه الساحة المباركة؛ وذلك فيما قصَّ اللّه علينا من واقعة النملة ـ على ما هي عليه النملة ـ التي أنطقها اللّه فقالت محذّرة النمل خطر الحطم والهلاك: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ وما كان من دعاء سليمان عليه السلام بعد أن تبسَّم ضاحكاً من قولها. ذلكم قول اللّه جل ثناؤه: ﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾** ﴾ [النمل: ١٧-١٩].

سبحان اللّه؛ هذا الدعاء الجامع الذي يصدر من نبي من الأنبياء بمناسبة تخوف النملة ـ هذه الحشرة الصغيرة الضعيفة ـ واحد من كلام النبوة ودلائلها؛ إن سليمان عليه السلام يسأل ربه أن يلهمه شكر نعمته التي أنعم بها عليه وعلى والديه، كما يسأله التوفيق لعمل صالح يرضاه سبحانه، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين.

وإذا لم نلمح من خلال هذه الدعوات الندية الثريَّة ما يتصل كلَّ الاتصال بالرحمة حتى بذلك المخلوق الأعجم الضعيف؛ نكون قد ظلمنا أنفسنا ـ واللّه أعلم ـ وظلمنا الحقيقة.

ولما كانت العبرة من القصص القرآني مقصودة لذاتها ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف: ١١١] ﴿ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾** ﴾ [الأعراف: ١٧٦] كان لزاماً أن نتخذ من هذا المعلم القرآني وأمثاله ضياءً على طريق تكتنفه

المصاعب، فنحمل لواء الرحمة عند البناء وتنمية طاقات الأمة ـ بعامة ـ والبشرية منها بخاصة؛ وذلك بأن نضع الأمور مواضعها، ونؤدي ـ في ضوء الشرعة المباركة ـ لكل ذي حق حقه، ونستمطر رحمة اللّه برحمة بعضنا بعضاً كلٌ في حدود ما أورده اللّه وأعطاه، والثغر الذي أقامه عليه.

مرة أخرى: أن يُعلَّم سليمانُ عليه السلام منطق هذه المخلوقات، وحين يسمع ما قال ذلك الحيوان الضعيف، يبتسم ضاحكاً، ويدعو اللّه بتلك الدعوات التي حملها إلينا الكتاب العزيز: إيذان بأن يفسح ـ بالأولى ـ للرحمة العامة على صعيد التعامل في المجتمع، وإبانة مؤكدة عن أن ذلك مما يرضي ربنا تبارك وتعالى.

وإذا أردنا التوفيق فيما نسعى له من بناء لا يعوزه الإحكام والشمول، وتنمية تعتمد الجدِّية وحشد الطاقات بعلم وأمانة: كان علينا، في نظرة متكاملة ـ أن يصحب الأخذ العلمي والاقتصادي بالأسباب، رحمة لمن في الأرض تستدر رحمة السماء، وبذلك يكون السداد والتوفيق إن شاء اللّه.

وليت أن للظلَمة قساةِ القلوب غلاظِ الأكباد آذاناً تسمع نداء السماء!!

* * *

بناء الإنسان الرحمة.. والبناء

«٢»

هذا كلام موصول بالحديث عن معلم قرآني أشرقت به آيتان من سورة النمل، ورأينا من خلاله صورة من صور الرحمة الإلهية بمخلوقات اللّه كبيرها وصغيرها، من خلال ما فاضت به دعوات سليمان عليه السلام، وهدانا ذلك إلى أن الرحمة إذا كانت لمخلوق كالنملة كذلك، فأولى بها وأحرى أن تكون للإنسان من أخيه الإنسان.

وانطلاقاً من الحجم الكبير الذي أعطي للرحمة في حضارة الإسلام وواقع المجتمع الإسلامي، رأينا في الجهاد وإقامة الحدود لوناً من ألوان الرحمة للفرد والجماعة.

والواقع أن هذه الرحمة في المنظور الحضاري، قد امتد رواؤها وامتد.. حتى وصل إلى كل مخلوق متصوَّر من البهائم والعجماوات، فضلاً عن بني الإنسان.

ولئن كان المعلم الذي أشرنا إليه فيما سبق، يشكل واحدة من روائع هذا الكتاب الكريم ـ وكله رائع معجز ـ إن ما جاء في سورة النمل صورة من صور الرحمة على ساحة متسعة الأرجاء تقرأ من خلالها كثيراً من الآيات التي تدعو إلى الرحمة، كما تقع على كثير من خواتم الآي التي تذكّر برحمة اللّه تبارك وتعالى لأن ما أودع في قلب عباده من هذه النعمة هو جزء يسير جدٌّ يسير من رحمتِهِ سبحانه بخلقه وهو الرحمن الرحيم.

وعلى هذه الطريق النيرة بإنسانيتها جاء وصف الرسول ﷺ بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم. وحفلت السنة المطهرة بكثيرٍ من الأحاديث، بل والوقائع التي كانت بياناً عملياً لما دلت عليه معالم القرآن الكريم، حيث اتسعت ميادين الرحمة لا للبشر فقط ـ كما ذكرنا ـ بل تعدَّت ذلك إلى كل المخلوقات التي لا تعقل ولا يحكمها إطار التكليف.

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي اللّه عنهما، أنه مرَّ بفتيان من قريش، قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كلَّ خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ لعن اللّه من فعل هذا، إن رسول اللّه ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً» أي هدفاً.

هكذا كان صنيع ابن عمر أنه أزال هذا المنكر مستدلاً بأن رسول اللّه ﷺ دعا بالطرد من رحمة اللّه على من اتخذ شيئاً فيه الروح هدفاً يرميه.

ولقد يكون ما صنع هؤلاء الفتية دربة على الجهاد، ولكن ابن عمر ـ وهو من أجلاء علماء الصحابة ـ بيَّن أوضح بيان، أن الغاية النبيلة الكريمة، لا بد أن تُسلَكَ لها الوسيلة المشروعة، لأن الغاية لا تسوِّغ الوسيلة في الإسلام، فلا نتخذ من الحرام طريقاً إلى الحلال.

وبعد هذا: فلقائل يقول: ما بالك تتحدث عن الرحمة ودماءُ المسلمين تجري أنهاراً على يد أعدائهم، وحرماتهم وأرضهم تنتهك صباح مساء؟!

وجوابي عن ذلك أني قصدت إلى الكلام على الرحمة ـ والحال هي الحال ـ كيما أُذكِّر أولئك الجانحين، الذين ما تزال في صدورهم بقية باقية من حسن الظن والذين يلتبس عليهم الأمر ـ أحياناً ـ بين التقدم العلمي، والسلوك الخلقي؛ وبأن يجروا شيئاً من المقارنة بين مبادىء أمتهم وما عليه أعداؤها سدنةُ الحضارة المتحكمة اليوم؛ فلقد سارت الحضارة الغربية بخطين متعاكسين، تقدمٌ علمي إلى الأمام، وتقهقر خلقي ـ بل ظلم واستكبار ـ إلى الخلف.

أرجو أن يكون في تصورنا ووعينا دائماً ونحن على طريق البناء والتنمية أننا بالإسلام كنا وبالإسلام نكون إن شاء اللّه. فلنأخذ ما نأخذ من العلم التقني ومنجزاته، وعقولنا متفتحة وقلوبنا بالإيمان مشرقة.

* * *

الرحمة.. والبناء

«٣»

ما أكرم ما يجد المرء في حديث رسول اللّه ﷺ وسيرته من بيان لمعالم كتاب اللّه، ولا بدع، فإن اللّه تبارك وتعالى قد أولى نبيه محمداً أمانة هذا البيان، ولقد أشرت فيما سبق من قريب إلى أن السُنَّة قد حفلت بكثيرٍ طيبٍ من البيان العملي لواحد من معالم القرآن، يعطي للرحمة أوسع الأبعاد وأعمقها في المجتمع. وأتيت على واحد من الأمثلة لهذا في حديث لابن عمر رضي اللّه عنهما.

ويشدنا المعلم القرآني إلى نماذج أخرى يجب الوقوف عندها، وتأمل دلالاتها وعطائها، خصوصاً ونحن أبناء هذه الأمة، يلفنا واقع بلونا منه كثيراً على صعيد الثقافة والاجتماع والاقتصاد بل وعلى كل صعيد.

والمطلوب اليوم ـ في وجه التحديات التي لا ترحم ـ أن نكون كفاء رسالتنا، فننهض بعبء التغيير إلى ما هو أفضل، مرتفقين بأمرين اثنين لا بد منهما:

أولهما ـ المعرفة التامة بطبيعة المعركة بين الحق والباطل، وطبيعة العدو الذي نقارعه على هذه الساحة، وما هي وسائله إلى تحقيق الغايات التي يريد.

الثاني ـ أن نراجع بوعي وأمانة رصيدنا الفكري والحضاري وكل عناصر بنيتنا التي قامت على العقيدة الصحيحة والحمد لله، حتى تسامق البناء وارتفع. ومن ذلك تلك السمة الحضارية التي ألمحنا إليها والتي كان من مظاهرها رحمة الإسلام حتى للحيوان الأعجم الذي لا يملك تلك القوة الناطقة التي كرم اللّه بها الإنسان.

على هدي ذلك: ننظر في تلك النماذج الأخرى من السنَّةَ لِتكون عوناً لنا في تعميق درب الأصالة، ولتكون ضياء طريقنا ونحن نبني كياننا الذاتي، وننمي قدرتنا، حيث يسلمنا النماء إلى نماء خير منه إن شاء اللّه.

فقد روى أبو داود عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: كنا مع رسول اللّه ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمّرة، فجعلت تفرش. فجاء النبي ﷺ، فقال: « **من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**».

أرأيت كيف انتصر رسول اللّه لهذا الطائر الصغير وهو الحمّرة، لقد آلمها فقد ولديها ففرشت جناحيها واقتربت من الأرض وهي ترفرف، فأمر صلوات اللّه وسلامه عليه أن يُرَدَّ لها ما فقدت.

ولم تشغل مهامّ الدعوة وأعباؤها، وترسيخ أسس الدولة وأبعادها رسول اللّه عن الوصية بحسن التعامل مع تلك المخلوقات المسخَّرة؛ فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إذا سافرتم في الخصب، فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم بالجدب، فأسرعوا عليها السير، وبادروا بها نِقيها**».

فلا إشكال في الخصب ولكن في الجدب يأمر رسول اللّه بالإسراع حتى تصل الإبل المقصد قبل أن يذهب مخ عظامها من ضنك السير.

وأكثر من هذا...! لقد حملت إلينا السنة المطهَّرة الأمر بترفيه الدوابِّ والنهي عن اتخاذه كراسيَّ! ذلكم ما روى أحمد وابن خزيمة وابن حبان والبيهقي عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**اركبوا هذه الدوابَّ سالمةً وابتدعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي**» أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي. ابتدعوها: اتركوها ورفِّهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلى ركوبها.

هذا هدي رسول اللّه في ظل معالم القرآن، مع هذه المخلوقات، فما بالك برحمة الإنسان، وأين هذا من دعاوى الأدعياء.

ونحن الذين لم يحمل التاريخ عنا يوم كنا على سُدَّة الأمر والنهي في العالمين إلا أكرم صور الرحمة حتى مع الأعداء، نعامَل اليوم من الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم؛ بما يتفطر له قلب الإنسان أن لو كان فيهم إنسان، وعلى هذا فلنعد إلى المحجة القادرة القاهرة بإذن اللّه، حيث تكون مجابهتنا لأعداء اللّه رحمة، وانتصارنا

رحمة، وغسل الأرض من رجس أعداء الحق والإنسان وصنائعهم أعلى نوع من أنواع الرحمة لنا بل وللإنسانية جمعاء، وإنها لخطوة متقدمة على طريق البناء والتنمية أن تفيض جوانحنا بهذه المشاعر التي تنعكس على ساحات المواجهة على اختلاف أشكالها وصورها.

* * *

الرحمة.. والبناء

«٤»

أجدني ومتابعة الاستنارة بما هدى إليه المعلم القرآني في سورة النمل، وما كان من دعاء سليمان عليه السلام الذي اختتمه بقوله: ﴿ .. **وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين**﴾ وما رأينا من البيان النبوي الذي يقرر موقع الرحمة في الإسلام حتى للعجماوات مهما بدا من صغرها وقلة حيلتها: أجدُ هذه المتابعة تقود تلقائياً إلى استذكار ما أخبر به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام من أن امرأة فيمن كان قبلنا دخلت النار بهرة ظلمتها بأن حبستها وحبست عنها الطعام والماء، فماتت؛ وإنه لخبر يحمل الوعيد الشديد وهو دخول جهنم لمن استبدل الأذى والظلم لأحد من خلق اللّه ـ ولو كان هذه البهيمة العجماء التي هي الهرة ـ بالرحمة والإحسان؛ ذلكم ما أخرج البخاري ومسلم عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال: «**عُذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها وسقتها- إذ حبستها - ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض**».

«خَشاش الأرض» بفتح الخاء المعجمة، والشين المعجمة المكررة: هوامُّها وحشراتها.

والكلام من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعليق، وهو يشدنا بعد رحلتنا العجلى مع المعلم القرآني الآنف الذكر وما يقرره ويؤكده من حديث النبي عليه الصلاة والسلام إلى ما ثبت في الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ: «**إن اللّه كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**». أخرجه مسلم من حديث شداد بن أوس وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ونصُّ رواية مسلم عن شداد بن أوس رضي اللّه عنه

قال: ثنتان حفظتهما عن رسول اللّه ﷺ قال: «**إن اللّه كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليُحدَّ أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته**».

فهذا الهدي النبوي ـ كما نرى ـ وثيق الصلة بالرحمة بل هو الرحمة كلها بالنسبة لما يطلب في القِتلة والذِّبحة.

فالرسول صلى اللّه وسلم وبارك عليه يدعو إلى الإحسان فيهما بالأمر الجازم المقتضي للوجوب «إذا قتلتم» والخطاب للمسلمين والمسلمات «فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة».

وهذا من الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام غاية الغايات على هذه الساحة؛ فحتى الحيوان المؤذي الذي شرع قتله كفاً لأذاه عن الناس، على المؤمن أن يحسن قتله، فيسرع في إزهاق روحه على الصورة التي يتحقق معها الإحسان، فلا يعذّب وهو في سبيل الموت.

وكذلك الدابة التي شرع ذبحها، وهي مما أنعم اللّه به على الإنسان وسخره له: على المؤمن أن يحسن ذبحها فلا ينالها التعذيب كذلك.

ولقد كان من جميل هديه صلوات اللّه وسلامه عليه ورائع بيانه قوله في الدلالة على ما به إراحة الذبيحة من العذاب وهي تذبح: «**وليُحِدَّ أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته**» فعلى المؤمن أن يكون محسناً في ذبحها لا مسيئاً؛ وذلك بأن يُحدَّ الشفرة التي يريد ذبحها بها، وأن يعمل على أن تكون على هيئة مريحة لها وقت الذبح. والمهم أن يذبح هذه الدابة على الشكل المشروع الذي تعتبر به مزكاة مصحوباً ذلك بالإحسان الذي كتبه اللّه على كل شيء.

وكم في إعلامنا ـ نحن المسلمين وحال الأمة هي الحال ـ أن اللّه كتب الإحسان ـ أي فرضه ـ على كل شيء، هكذا بهذا العموم، من تكريم وتوجيه إلى سلامة البناء الحضاري الذي لا تعوزه إنسانية الإنسان!

وكم في ذلك أيضاً من ارتفاع بالإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ بل وبالجماعة المسلمة إلى أن يكون الجميع في تصرفاتهم عنوان الرحمة والإحسان، ولكن بوعي يعطي كل شيء قدره ويضع كل أمر موضعه، فللندى والرحمة مكان، وللسيف نصرةً للحق ودفعاً لأذى المؤذين مكان!!

وهذا الإحسان المقترن بالرحمة، النابعُ من الانصياع لما أرشد إليه القرآن الكريم، ووجه لإنفاذه عملاً وسلوكاً نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام: هو ما كان من المسلمين عبر التاريخ في كل فتوحاتهم ومعاملاتهم في ظل الحكم الإسلامي مع غير المسلمين يوم كانت لهم راية مرفوعة، وكلمة مسموعة، وقوة يرهبون بها عدو اللّه وعدوهم.

وغير مجهول - على سبيل المثال وما أكثر الأمثلة - ما صنعه القائد المسلم المظفَّر صلاح الدين الأيوبي يرحمه اللّه يوم حرر بيت المقدس من رجس الصليبيين جزَّاري الأمس - وهو على أريكة القوة والنصر المبين - حين سمت به أخلاق الإسلام إلى مرتبة في التعامل مع أولئك الأعداء الذين كانت له الغلبة بإذن اللّه عليهم، هي أشبه بالخيال؛ عفواً وتسامحاً وبُعداً عن الانتقام.

هذا في الوقت الذي جرت فيه دماء المسلمين أنهاراً في القدس عندما دخلها أولئك الصليبيون وغصت الطرقات بأشلاء النساء والأطفال والشيوخ، ناهيك عما كان من السلب والنهب وارتكاب ما لا يحصى من المآثم، وقد فعلوا ذلك كله باسم الدين والدينُ منهم براء.

وصنيع أعداء اللّه اليوم من يهود ونصارى صهاينة ووثنيين ومن على شاكلتهم؛ على نسبٍ من صنيع الصليبيين في القدس وفي الأندلس - على تطور في شناعة الأسلوب وقبيح الممارسات.

والمهم أن يكون اعتزاز الأمة بحضارتها وقيمها النابعة من الكتاب والسنة ثم فهم أئمة الهدى ـ عبر السنين الطوال ـ حافزاً إلى مزيدٍ من التمسك بالأصالة والحرص على منطلقات العقيدة، والقضاء على عامية الفكر في شأن الأعداء وتحديد المواقع سلماً وحرباً، وعدم الاستسلام لمن يُدهنون لنا بالقول، وفي أيديهم سكين الجزار تقطر من ضحايا عدوانهم دماً، وما تخفي صدورهم أكبر!

وليكن هذا التناقض بين السمات الأصيلة في حضارتنا الإنسانية وبين دعاوى الآخرين التي يكذبها الواقع ويفضح عوارها في التطبيق، عاملَ استئناف جادٍ حازم لحسن ولائنا لأمتنا، وحضارتنا وتاريخنا طلباً لمرضاة اللّه عز وجل.

ولعل ذلك من أمضى القوى الدافعة للتشمير عن سواعد الجد، على ساحةٍ كفاؤها: إيمان قوي، وجهود خيِّرة تبذل، ووقت يحافظ عليه في إطار منهجية منضبطة، وسلّم للاهتمامات والأولويات لا يريم، يكون من ثمراته: تنمية دائبة موجّهة لكل الطاقات والفاعليات، واللّه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

هذا على صعيد العلاقة مع الآخرين. أما على الصعيد الداخلي: فكم يزيد أمر الإحسان والرحمة في الإسلام حتى في التعامل مع العجماوات والبهائم وضوحاً أن يأخذ هدي النبي ﷺ ـ وهو بيان القرآن ـ طريقه إلى العمل والتنفيذ في العلاقة بين ولي الأمر ومن يوليه اللّه أمرهم في حياة المسلمين.

فكما تطلب طاعة ولي الأمر المسلم بالمعروف: كذلك عليه أن يكون ناصحاً لرعيته في دينهم ودنياهم رفيقاً بهم، لا يتبدَّل الظلم والطغيان بالعدل والرحمة والإحسان.

فعن عائذ بن عمرو رضي اللّه عنه أنه دخل على عُبَيْد اللّه بن زياد فقال له: أي بُنيَّ؛ إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**إن شرَّ الرعاء الحطمة**» فإياك أن تكون منهم. رواه البخاري ومسلم.

والذي يموت وهو غاش لرعيته محرَّم عليه أن يدخل الجنة والعياذ باللّه. روى البخاري ومسلم عن أبي يعلى معقل بن يسار رضي اللّه عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**ما من عبد يسترعيه اللّه رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرَّم اللّه عليه الجنة**». وفي رواية لمسلم «**ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة**».

ومما يهز القلوب والمشاعر ـ أن لو كان للظلمة قلوب ومشاعر ـ أن الرسول ﷺ يدعو دعاءً صريحاً على من يشق على الأمة إذا ولي من أمرها شيئاً، ويدعو لمن يرفق بهم إذا حُمِّل أمانة الولاية كذلك؛ فعن عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول في بيتي هذا: «اللّهم من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فشقَّ عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به» رواه مسلم.

فإذا كان اللّه قد كتب الإحسان على كل شيء، وعلى المكلّف أن يحسن قتلة الحيوان المؤذي، وأن يحسن ذبح الحيوان المشروع أكله بعد التذكية، وأن يُحدَّ شفرته ويريح ذبيحته. فأيُّ عدوان على الإنسان وهدي القرآن والسنة يقترفه الظلمة بظلمهم المسلمين!!

* * *

مرة أخرى.. مع الرحمة والبناء

«٥»

في حديث ينتسب إلى ما كنا بصدده فيما سبق من الانتفاع بهدي المعلم القرآني في سورة النمل، والصورِ العملية لبيانه من السنة ووقائع التاريخ: يبدو أنه لا تثريب علينا ـ والأمر كذلك - أن نشير إلى أن أعداء أمتنا لا يفتؤون يعملون على إقناعنا مع الآخرين أنه ليس عندنا ما يرتكز عليه في ساحة القيم الحضارية، ويكاد بعض بني جلدتنا ـ مع الأسف ـ يصدق ذلك بل وتقرأ ـ فيما تقرأ ـ أن بعض من هانت عليهم أنفسهم قد جنح إلى التصديق.

من أجل ذلك كان من مقتضيات الإحكام في البناء أن يكون للرواد نظرة واعية تكون الخطوة الأولى لاستئصال هذا المرض وأمثاله من بعض النفوس. ومنطق الأقوياء اليوم يتجاهل البعد الذي أعطاه الإسلام للرحمة، فكان سمة بارزة من سمات حضارية لمسناها من خلال العطاء القرآني وأحاديث النبي عليه الصلاة والسلام المبلغ عن اللّه عز وجل، تلك التي كان منها قوله ﷺ: «**إن اللّه كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة..**» روايه مسلم عن شداد بن أوس.

ولقد يكون من الأهمية بمكان أن نحسن فهم العموم الذي نطق به قوله ﷺ - فيما روى البخاري ومسلم -: «**منْ لا يَرحمْ لا يُرحَمْ**».

وليت أن هؤلاء الأقوياء يتجاهلون ما لا يحسن تجاهله وكفى.. بل إنهم في سلوكهم معنا، يسلكون سبلاً هي على النقيض دائماً من الرحمة والإحسان؛ فتراهم وهم أدعياء الحرية والإنسانية اليوم: يقتلون المسلمين ولا يحسنون واللّه قتْلَهم، ويذبحون أطفالهم ونساءهم ولا يحسنون واللّه ذَبْحَهم ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴿٨﴾ ﴾ [البروج :٨]

ونقول لمن يطلب الدليل: أين أنت مما صنعوا ويصنعون في فلسطين وجنوب لبنان؟ وهلا أصغيت إلى القليل الذي يذاع من أخبار أوغندا، وما يجري من المذابح والصلب والتشريد وانتهاك الأعراض لمن يقولون «**لا إله إلا اللّه**» والدول الكبرى تبارك وتشجع؟ وهل غاب عنك ما يحدث في أفغانستان، وأرتيريا، وتشاد، والفليبين، وغيرها وغيرها من بلاد اللّه، وكل ذلك تحت سمع وبصر أولئك الذي يُدلّون ـ لا سمعوا ولا أبصروا ـ على العالم بالتَّمدُن والتحضر وإعلان حقوق الإنسان.

ولكن لعل لهم تعريفاً آخر للإنسان لم نصل بعد إلى مستواه، لأننا لسنا منهم...!

والذي يعنينا ـ والأمة تحاول أن تقضي على العبث، ويرتاد لها البررة من أبنائها طرائق التنمية والبناء ـ أن لا يكون حظنا من المصائب والنكبات، حظ النادب والنائحة، ولكن أن يوظَّف هذا الذي يحدث، على ساحة العطاء؛ وتنمية الإدراك الذاتي للحقيقة ـ كما هي ـ بصرف النظر عن العنوان المكذوب الموضوع لها.

وكوننا أبناء الرحمة والإيمان لا يعني الغفلة واللامبالاة؛ ومن الإحسان لأنفسنا وللإنسانية أن نعمل على بناء قوتنا الذاتية وحشد كل طاقة ممكنة لمواجهة أكلة لحوم البشر وجزاري الحرية في الداخل والخارج، الذين يسخِّرون العلم لهدم الإنسان واستئصال العقيدة التي تحمي إنسانية الإنسان.

ومعاناةُ المسلمين اليوم جديرة بأن تفجر طاقات شبابنا المؤتمنين على مسيرة الخير والنماء. صحيح أن الغاية هي آخر الطريق ولكن سلامة تصور الغاية وتبين أبعادها لا بد أن يكون من أول الطريق، ذلك خير وأحسن تأويلاً.

* * *